وسائل الاعلام بين العامية والعجمة

الدكتور يوسف عز الدين

أولاً. الخطاب الإعلامي وأثره السلبي في التنمية اللغوية المعاصرة.

تتهم اللغة العربية بالجمود والعقم وعدم استيعابها للعلوم الصرفة الحديثة والفلسفة الغربية ومصطلحات الاختراعات والاكتشافات المتطورة التي تغمر العالم.

اتهاماتهم يكذبها واقع اللغة العربية في ماضيها الطويل وحاضرها المتطور، فقد استوعبت ثقافات متعددة وحضارات متباينة وصهرتها في أساليبها المرنة وقابلياتها الكبيرة فقد احتوت حضارة اليونان والفرس والرومان والهند، وها هي اليوم لا تعجز عن احتواء العلوم الحديثة وفنونها ومصطلحاتها بكل يسر وسهولة مع قصر عمر تطورها الحضاري إذ أنها بدأت بصورة جادة في زمن محمد علي باشا فقد ترجمت عدداً كبيراً من كتب الغرب ووضعت المصطلحات الكثيرة فهو عمر قصير في هذا المضمار الحضاري، وقد تم وضع عدد من المعجمات في مختلف العلوم والفنون، وكانت مصر الرائدة ولم تقف المجامع في الشام والعراق والأردن والمغرب وتونس عن هذا التطور اللغوي والحس الحضاري فقد طبع في القاهرة أول معجم للطلاب بعدة لغات باسم (كتاب أنيس المشرحين في علم الطب) (١) لتسهيل فهم اللغات الأجنبية على الطلاب بل ان القائمين على التدريس استوردوا المعجم من الهند قبل ان تعود البعوث من أوروبا إذ كانت فيها كلية طب تدرس باللغة العربية في مدينة كلكتة.

ولولا غزو نابليون ثم الاستعمار الانكليزي الذي فرض فيه كرومر اللغة الانكليزية لكانت مصر قد قطعت شوطاً كبيراً في نموها وتطورها التقني والعلمي والحضاري، وقد ثبت بأن مصر في العصر الحديث أول من اعتنى بالتنمية اللغوية واثرائها وبخاصة بعد البعوث من أوروبا(٢) وكانت حركة الترجمة أهم ينابيع التنمية اللغوية يساعدها على النشر مجلة (روضة المدارس) (ويعسوب الطب) التي كانت تختار أهم المقالات في الطب وتترجمها إلى اللغة العربية بأسلوب سهل وعبارة عربية سليمة، لأن المشرفين على هذه الحركة كانوا من علماء الأزهر.

وعلى الرغم من فرض الفرنسية والإنكليزية فقد نمت اللغة العربية وتطورت تطوراً كبيراً في شعر الشعراء ونثر الكتاب وابتعدت عن المحسنات اللفظية كالجناس والتورية والمجاز ورد الصدر على العجز والسجع الذي كان حلية الكتاب التي يفاخرون بها ويتألمون إذا لم يفهم هذا السجع، فقد قال ابو الثناء الألوسي عند سفره إلى إستانبول ومروره بديار بكر.

وإني مللتُ السجعَ من أجلِ أنه
لمعظم أهل الروم قد كسد السجع
وكم فقرة قد احكمتها قريحتي
تلوث بأرجاها فما ساغها سمع

ولم نعد نرى كلمات ذات جرس أو وجود ألفاظ غير مأنوسة بل سخر الشعراء من هذه الكلمات، فقد قال صفي الدين الحلي:

إنما الحيزبون والدر دبيس
والطخا والنقاخ والعطلبيس

لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس(٣).

لأن ادباء هذا العصر طوروا اللغة باستعمال الكلمات المأنوسة ويمكن البرهنة على ذلك بمقارنة أدب الأدباء مثل: محمد عثمان جلال وعلي مبارك وعبد الله أبو السعود مع شعر البارودي وشوقي وإسماعيل صبري ثم بعدهم جيل طه حسين والزيات والمنفلوطي والرافعي في مصر والرصافي والشبيبي والكاظمي في العراق ومقارنة نثر جريدة الأهرام في القاهرة ونثر جريدة الزوراء في بغداد وبعدها الهلال والمقتطف نجد اليسر والسهولة في العبارة التي تعنى بالمعاني قبل العناية بالألفاظ أي العناية بالمضمون أكثر من العناية بالإطار اللغوي وكانت المحاضرات تلقى في الأزهر ودار العلوم ثم الجامعة الأهلية والندوات العامة بالعربية الفصحى ولما جاءت المخترعات الحديثة كالقطار والحافلة (الترام) والساعة دخلت في شعرهم وبعضهم استعمل الكلمات الأجنبية إذ لم تكن قد عربت هذه المخترعات، فقد قال البارودي:

لقد نعب (الوابور) بالبين بينهم
فساروا ولازموا جمالا ولا شدوا

كما دخلت في الشعر كلمات أجنبية مثل (أفندي) و(الاتك) و(براندي) وقد استعمل شوقي بعض هذه الكلمات بمثل قوله:

بطل البداوة لم يكن يغزو على (تنك)
ولم يك يركب الأجواء.

واستعمل في شعره (افرلند) والبايب) والبرلمان وغيرها مما تحتاج إليه المناسبة وتفرضها الدقة.

وفي العراق استعمل معروف الرصافي كلمة (اتوموبل) قبل أن تعرب إلى سيارة و(عربية) في القاهرة فقال: (بتوموبيل) جرى في الأرض منسرحاً

كما جرى الماء في سفح الأهاضيب
ينساب مثل انسياب الايم تحمله
حوامل عجلات في دواليب
كأنها وهي بالمطاط منعلة
تسعى باخفاف أنواق مطاليب

وله قصيدة في الساعة والقطار وذكر الشعر (التلغراف)، ونظم الزهاوي في علم الفلك إضافة إلى احمد الكاشف وحافظ إبراهيم وتسربت الفلسفة الجديدة والآراء العلمية مثل نظرية انشتاين وجيمس جويس وديكارت وسمي العصر عصر البخار عندما حرك القطر والمراكب البخارية حتى قال الرصافي:

تعاليت يا عصر البخار مفضلاً
على كل عصر أهله قد قضى نحبا

واندهش إبراهيم الطبطبائي عندما رأى الحافلة (الترام) فقال:

كيف تنقاد قلعة من حديد
أو حديد ينساب فوق حديد؟!

لأن وسائل الاعلام كانت تنشر أخبار هذه المخترعات والاكتشافات وتنشر الآراء العلمية والفلسفية الجديدة في الصحف والمجلات وتصفها.

وقد تعددت الآن وسائل الاعلام وتنوعت وأخذت تدخل في كل زاوية من زوايا المجتمع بعد ان جاء الانترنت وتطور التلفاز والمجلات والصحف بعد أن كانت وسائل الإعلام محدودة المساحة الاجتماعية والفكرية والآن لوسائل الاعلام دراسات جادة في علم النفس والهندسة وعلم الاجتماع والسياسية العامة والاقتصاد وقد خصص لها كليات متعددة ثم بنيت لها مدينة واسعة لتكون أكثر بعداً وأعمق اثراً في حياة المجتمع المعاصر وتوجهه كما يريد القائمون عليها.

ثانياً. تسرب العامية إلى وسائل الاعلام:

اما الخطر الآخر الذي يهدد اللغة الفصحى ويتحداها هو استعمال العامية بصورة ظاهرة ومستمرة ليلاً ونهاراً، وفي جميع وسائل الإعلام العربية وأبرزها المسرحيات والمسلسلات، وزاد الطين بلة ما تنشره الجرائد والمجلات من صفحات بالعامية، قد تسربت هذه الظاهرة إلى مجلات الأطفال التي تصدرها وزارة الثقافة وكان حرياً بها وهي في بلد يحرس العربية ويحافظ عليها ان تصدر بالفصحى السليمة، ومما يؤسف له ان بعض وسائل الاعلام تصر على التحدث بها حتى في الاخبار، وتعمد الإمالة وكسر اللفظ وتحريفه فيقول عن القدس (الإدس)، وعن الأرقام (الأرآم) وقلب الثاء إلى سين وغير ذلك من الكلمات التي تسمعونها كل يوم، وكان العرب يؤلهم اللحن في الكلمة الواحدة وقد عد الرسول الكريم اللحن ضلالاً عندما سمع رجلاً يلحن، فقال صلى الله عليه .: (أرشدوا أخاكم فقد ضل)، وحرصاً على الفصحى تتبع العلماء اللحن على العامة وسجلوه لكي يكون محدوداً ومعروفاً/ مثل علي بن حمزة الكسائي في كتابه (ما تلحن به العامة)، وألف الزبيدى في لحن العامة، وفي الأندلس ألف ابن هشام اللخمي عن لحن العامة، ولما انتشرت في العصر الحديث ظاهرة الابتعاد عن العربية ألف اليازجي وكمال إبراهيم عن الاغلاط، وألف مصطفى جواد كتاباً باسم (قل ولا تقل)، وغيرهم من الكتاب الأفاضل.

ان الدعوة إلى العامية يراد بها صرف العرب عن لغتهم وجعل الفصحى لغات متعددة، وقد وضعوا نصب أعينهم ما يقوله الأجانب عن اللغة اللاتينية وتفرعها إلى لغات متعددة ولهذا عندما سيطر الغرب على مقدرات الوطن العربي أراد تطبيق ذلك، ففي مصر فرض كرومر الإنكليزية وما قام به وليم ولكوكس مثله، وادعى بان الفصحى هي السبب المؤثر في تأخر المصريين، وكان يغري الناس بالكتابة بالعامية فقد نشر في مجلة الأزهر اعلاناً قال فيه (من قدم لنا هذه الخطبة باللغة المصرية الدارجة، وكانت واقفة جداً يكافأ أربعة جنيهات أفرنكية) ويدلل على ترجيح العامية بما حدث في بلاده، وقال أن اللغة الانكليزية اجهزت على اللاتينية فيجب ان تقضى العامية المصرية على الفصحى حتى يقدر المصريون على الاختراع، وادعى ان الهكسوس هم الذين جاءوا بالعربية لأن العربية لا تعرف النفي المزدوج، مثل: ما علمتش. ولقطع الصلة بين تراث الأمة وحاضرها ألف (وليم سبيتا) الألماني كتاباً سماه (اللهجة العامية الحديثة في مصر)، وكان يكتب رسائله بها ولا لوم عليهم لأن العربية تجمع العرب وتهدد خططهم الاستعمارية، ولكن الغريب مساندتها من كتاب في العالم العربي، مثل: سلامة موسى ويعقوب صروف صاحب المقتطف واحمد لطفي السيد الذي زعم أن الفصحى فقيرة في المعارف والمصطلحات، وان استعمال العامية سيخرج الفصحى من الضعف، ونسي ان العامية اصلها الفصحى، وقد برهن الزميل الفاضل الدكتور أمين السيد في بحوثه المستمرة التي يقدمها كل سنة في اجتماع المجمع السنوي على ذلك عندما احصى الكلمات العامية الموجودة في المعجم الوسيط، وكانت من الكثرة التي دعت استاذنا محمد عبد السلام هارون إلى التخلص من جزء منها . كما قال لي رحمه الله ،. وبالفعل وجدت هناك كلمات عامية مصرية لا تستعمل عندنا مثل (كتكوت) نسميه في العراق (فرخ)، و (تقاوي) ونسميها (البذور)، و(قلاوز) وتسمى بالعامية العراقية (برغي)، والقماش ونسميه في العراق البزاز، وغيرها من الكلمات وهي كثيرة، وفات هؤلاء الكتاب العرب ان العامية سوف تقسم العرب إلى لغات، وسوف يخسر هؤلاء الكثير عندما يكتبون بها، وسف تكون كتبهم محدودة بمصر إضافة إلى ضياع تراث عمره أربعة عشر قرناً، وهل سيؤلفون كتباً بلهجة الصعيد وأخرى بلهجة أهل القاهرة؟ ورحم الله حافظ إبراهيم، فقد شعر بذلك الخطر، فقال عن قابلية اللغة العربية واستيعابها الحضارة القديمة ومسايرتها للاختراعات الجديدة:

وسعتُ كتابَ الله لفظاً وآيةً
وما ضقت عن أي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات

سرتْ لوثة الإفرنج فيها كما سرت
لعابُ الأفاعي في مسيل فرات

وفات هؤلاء بمقارنتهم اللاتينية باللغة العربية لأن هناك هوة بين هاتين اللغتين، واتسعت هذه الهوة حتى بين اللغة التي وضعها جوسر واللغة الانكليزية، وليست هذه المسافة كبيرة بين لغة العرب قبل الاسلام ولغتنا الحاضرة برغم مرور أربعة عشر قرناً على العربية، وقيل ذلك في اللغات الأوروبية في لغة جوته وراسين وبودلير ولغاتهم المعاصرة، ان الجهود التي يبذلها المجمع والأزهر والجامعات في سبيل الفصحى مهددة اليوم بحرص أولياء الطلاب العرب على دفع أولادهم إلى اللغات الأجنبية وهو عمل يضيع الهوية العربية الإسلامية.

أن استعمال العامية يراد به تحول العقلية المشتركة إلى عقلية فطرية وقتل الوعي الإسلامي لأن تهميش الفصحى سوف يبعد العرب عن تراثهم الاصيل وحضارتهم العريقة.

ليست العربية الفصحى لغة حديث وكتابة إنما هي لغة حضارة وأدب وماضٍ تقف عليها كل الشعوب العربية، وتوثق الشعوب الإسلامية برباط قوي من التراث والحضارة، وهم يريدون التفرقة لخلق شعوب وأمم متعددة لا أمة واحدة تزحم حضارتهم وتفوقهم.

ثالثاً. تسرب اللغة الأجنبية إلى وسائل الاعلام

ان تنافذ الحضارة ضرورة حتمية ومعنى التنافذ كما قال الفيروزآبادي: النفاذ جواز الشيء والخلوص منه، ونفذ القوم صار منهم والوسيط يقول أنفذ القوم خرقهم ومشى وسطهم، لهذا فاللغات والثقافات والحضارات المختلفة لا يمكن إلا ان تتأثر بالعالم وما فيه من تطور وتجديد. بيد أن الأمم العريقة في حضارتها الواعية بالثوابت الفكرية والجذور الاصلية هي التي تحتوي الجديد وتحافظ على اصالتها ومتانة جذورها، فقد استعمرت الدول الأوروبية الوطن العربي ونشرت لغاتها ورعت المتكلمين بها بعناية كبيرة لكن اللغة العربية بقيت حية ولم تندثر كما اندثرت لغات كثيرة.

ثم جاء العصر الحديث ومعه الاستثمار والاقتصاد وبراعة الآلات وقوة الشركات إلى بلادنا واحتاجت إلى أيد عاملة وإدارة فاعلة لهذه الشركات، وكان شبابنا بحاجة إلى العمل فيها فسارعوا إلى تعلم اللغات الأجنبية للاستفادة من فرص العمل المتاحة التي تفرضها متطلبات العمل فيها بعد أن سيطرت الرأسمالية بقوة على السوق، ولست ضد تعلم اللغات الأجنبية وقد درسناها وعايشناها واحتويناها دون ان نبهر بتطورها وحياتها المادية لأننا تعلمناها بعد ان استوت لغتنا على سوقها وقويت الثوابت بجذورها في عقولنا. إن بعض الدول تحافظ على لغتها وتسن القوانين لمنع استعمال غير لغتها ومنها فرنسا التي تمارس التطهير العرقي بصراحة. فإن وزير الثقافة الفرنسي جاك توبون والدولة الفرنسية حذرت وسائل الاعلام من استعمال غير الفرنسية ووضعت غرامات لمن لا يتقيد بهذا الأمر، والعرب عاكفون على ترجيح اللغات الأجنبية. فالمرأة لا ترضى أن تقول أنها ذهبت إلى الحلاق أو المزين، وتقول: أنها ذهبت إلى (الكوافير) إنه شعور بالنقص واستعلاء على اللغة. إن الامة الحية المعتزة بنفسها تستعمل لغتها فقد قيض لي ان اجلس مع شون لاي رئيس وزراء الصين في بكين وكان يتحدث معي باللغة الصينية: فقلت له يا سيادة الرئيس، أنت تعرف الفرنسية والإنكليزية فلماذا لا تتحدث بها؟ فضحك واستمر يحدثني باللغة الصينية إنه إنسان يحس بمكانة لغته ويعتز بها ويثق بنفسه، وها نحن اليوم لم نكتف باستعمال اللغات الأجنبية في القضايا التي تفرض علينا الحديث بها إنما شعور بالنقص نستعملها في حاجات تافهة، ومن الطريف ان أحد العراقيين أراد ان يشعر الجالسين بعلو مكانته، فقال: لقد كنا في لندن نشرب الشاي مع (الملْك) ((Milk، لا ضير ان نتحدث باللغة الأجنبية إذا كان الحضور أجانب، ولكن الخطر ان تستعمل هذه اللغة في وسائل الإعلام، وبخاصة إذا اهملت الكلمات العربية التي تعطي المعنى نفسه، فقد أرى واسمع في وسائل الاعلام (مرسي، وطابور، وباي باي، وأوكي، والمارتون)، وهل هناك أجمل من شكرا، وصف ومع السلامة، وحسناً، وسباق الضاحية، وأشد مرارة انتشار الانكليزية في لعبة كرة القدم فالزاوية (كورنر) والهدف (كول) والمبارة (ماج) وغيرها مما نعرف، ولعل الغريب اننا نستعمل كلمة (كيبل) للسلك، وهي كلمة عربية أصلها الحبل وقد أراد أهل العراق تعريبها، فقالوا: (قابلو) وجمعها قابلوات مع أن الاسلاك أجمل واخف، ولعل من المؤسف ان تنتشر اللغات الأجنبية في كل مكان، مثل: (التلفون) للهاتف، و(اليوبيل) للعيد و(البوسطة) للبريد، و(الراديو) للمذياع، و(الجورنال) للجريدة، و (الأرشيف) للسجلات أو الوثائق و (لوكندة) للفندق و(الكوبري) للجسر. وقد بذل المجمع جهوداً كبيرة وعرب مثل هذه الالفاظ كما استوعبت الفصحى بعض الكلمات الأجنبية، مثلك القرصان والطماطم والأوطة وقفطان، وغيرها، وقد احصاها الزميل الفاضل الدكتور السيد في البحوث التي يقدمها كل سنة في المؤتمرات عندما درس العامية الموجودة في الوسيط.

اليوت والسياب

اسعد محمد علي

الأفكار الإبداعية مرهونة بقدرات المبدعين، ومراحل الإبداع لم تتخل عن نتاجات الافراد، مهما كانت صغيرة، شريطة ان تنم عن اصالة خاصة وقدرة ابداعية حقيقية. غير ان المحاولات الإبداعية قد تظهر عبر ايقاع انجازي سريع، دافعه الظهور، وتحقيق (الريادة) التي قد ترافقها (سخونة) الموقف الابداعي الخاص، فيؤدي ذلك إلى (اقتباسات) معينة تأتي سياقاً وقد تأتي تلقائياً جراء الاطلاع والاعجاب بالغير.. وقد حدث هذا مع شاعرنا المرحوم السياب الذي كان اعجابه بالشعر الانجليزي قد أدى إلى (اقتباس) عناصر شكل (الأرض اليباب) فإذا كان (اليوت) ابن الثقافة (الغربية) فان من حقه ان يتأثر بأسلوب (الفكرة المسيطرة) التي ظهرت عند المؤلفين الموسيقيين منذ العصر الكلاسيكي لا سيما بيتهوفن.. والتأثر أو التواصل والاعجاب أدى ببعض المبدعين إلى اقتباس جمل موسيقية من مؤلفات الآخرين وتضمينها في مؤلفات خاصة انطلاقاً من مهمة التواصل الابداعي. الحضاري.. ﷺطالما تأثر بيتهوفن بأيمانوئيل باخ وهايدن واقتبس موتيفات منهم ضمنها وطورها في مؤلفاته.. كذلك الحال مع مالر الذي استخدم جملاً من فاغنر وغيره في سمفونياته ﷺ، كذلك اقتبس اليوت أسماء وجملاً وعبارات لاتينية واغريقية في قصيدته (الأرض اليباب) لكن ما بال شاعرنا السياب وقد اقتفى اثر اليوت والشعراء الغربيين، سواء في استخدام شكل الأرض اليباب، أو في كتابة شعر الشطر الواحد المنوع بدلاً من شطري البيت الشعري وربما جاءت الفكرة المسيطرة "واسلوب تنويع الفكرة في قصيدة شاعرنا السياب (المسيح بعد الصلب) تلقائياً دون عمد في الأخذ أو الاقتباس، وعلى الرغم من ذلك فان ظهور عناصر الاداء الواحدة بين (الأرض اليباب) (والمسيح بعد الصلب) يجعلنا نشير إليهما، مبرزين الفارق الأدائي بين القصيدتين، وهو ما يمنح شاعرنا قدراً من أصالة يُفترض ان تظهر في نصوص المبدعين، هذا الفارق يتمثل في (المنحى الفكري) والمنظور التحليلي الصرف الذي ظهر في الأرض اليباب، في حين نجد (الفكرة) عند السياب تؤدى عبر رؤية تحليلية رافقها طابع رومانسي ومفردات فيها من الليونة ومرونة النبرة ما يجعلها أكثر قرباً إلى القارئ من الأرض اليباب ذات المنحى الفكري التي تتطلب نظرة خاصة في استيعاب شكلها الواسع.

" حفلة التيس "
نموذج الدكتاتور في الأدب وخارجه

جمعة الحلفي

بعد أكثر من ثلاثين عاماً تعود السيدة اورانيا من المنفى، فقد رحل الدكتاتور اخيراً وحل نظام جديد في بلادها الدومنيكان. لكن اورانيا، التي تعتبر أن رحيل (ترخييو) كان أشبه بالمعجزة، لا تشعر، مع هذا، بذلك السرور الذي ينتظره أي عائد إلى وطنه، بعد عقود من النفي والغربة، إنما تشعر بالضيق، منذ لحظة وصولها إلى أرض الوطن، ذلك أن أكثر من ثلاثين عاماً من الطغيان والاستبداد والخوف والرعب،

كانت قد حطمت أرواح الناس وأفسدت حياتهم، مثلما كانت قد حطمت حياة اورانيا نفسها (قبل اضطرارها للرحيل هاربة من بلادها) ومثلها المئات من نساء وفتيات الدومنيكان اللواتي ساقتهن اقدارهن ليقعن ضحية لنزوات ذلك الدكتاتور البغيض وأبنائه الشاذين واجهزته القمعية.

هذا ملمح واحد من سيرة طويلة ومركبة يسردها الكاتب الدومنيكاني، ماريو فارغاس يوسا، في روايته (حفلة التيس) التي تنتمي لما يمكن تسميته بـ(أدب الدكتاتوريات) في أميركا اللاتينية. فقد سبق لنا وان قرأنا بالعربية روايات كثيرة من هذا النمط، مثل (تيرانا بنديراس) للكاتب الأسباني رامون ديل انكلان، و(السيد الرئيس) لاستورياس، و(حق اللجوء) لكاربنتيه، إضافة لرواية الكاتب الشهير غارسيا ماركيز (خريف البطريق).

وتسرد (حفلة التيس) التي تعد بمثابة دراسة سيسيولوجية لطبائع الاستبداد والطغيان، وما تترك من آثار وندوب نفسية واجتماعية على الأفراد والمجتمعات، سيرة دكتاتور الدومنيكان (رفائيل ترخييو) الذي استولى على السلطة منذ العام ١٩٣٠ ووضع كل ثروات البلاد ومقدراتها في قبضته لثلاثين سنة كاملة، كاشفة عن أساليب حكمه وعلاقاته وطبيعة تعامله مع اقطاب نظامه وشذوذه وجرائمه. واخيراً نهايته المفجعة على يد مجموعة من الضباط المتآمرين، ممن كانوا، حتى وقت قريب، من بين بطانة نظامه وحراسه الشخصيين. ومما يلفت في رواية (حفلة التيس) كما في الروايات الأخرى من هذا النمط، ذلك التشابه (إلى حد التطابق احياناً) بين سير وملامح وطبائع الطغاة والدكتاتوريين، لا في أميركا اللاتينية فقط إنما في العالم بعامة. فسيرة ترخييو الدومنيكاني القاسي والفظ، هي، في واقع الحال، سيرة (السيد الرئيس) لدى استورياس. وطبائعه النزقة وتعاليه الفج، هي من طبائع الطاغية (بندريراس) عند انكلان. وعزلته ونهايته الأخيرة، هي عزلة ونهاية الجنرال في (خريف البطريق) لماركيز. وهناك ما لا يحصى من الرذائل التي تجمع بينه وبين دكتاتورنا المخلوع.

وإذا ما أردنا التعميم خارج الأدب، فهؤلاء جميعاً أسرى مرض الشعور بالعظمة والتعطش للدماء والاستهتار بارواح الناس ومصائرها، ولهذا لا يشذ ترخييو الدومنيكان، في ولعه بإطلاق القاب التفخيم والتقديس على نفسه، عن نظرائه في (أدب الدكتاتوريات) وفي خارج هذا الأدب. فهو (سيد الوطن) و(الزعيم الموقر) و(صاحب الأفضال والعطايا) و (المغدق على الناس) الخ. ولهذا أيضاً تنتشر صوره وتماثيله وأصنامه وقصوره في طول البلاد وعرضها، ولا يكاد يخلو منزلٌ لمواطن من صورة له سواء ببزته العسكرية ونياشينه الكثيرة أو بملابس الرياضة والحياة المدنية. ومثلما لنظرائه ابناءاً متنفذين وقساة وشاذين، له أيضاً مثل هؤلاء الأبناء، فرامفيس (مثلاً) وهو الابن البكر للطاغية ترخييو، "بشاربه الدقيق المشذب ونظارته ماركة راي. بان وبدلاته المزركشة وقامته الرياضية وساعاته وخواتمه، التي من الذهب الخالص، وسيارته المرسيدس، يبدو وكأنه صفي الآلهة، فهو غني، متنفذ، قوي، سعيد، لكنه لم يرث من أبيه شهيته إلى السلطة، ربما باستثناء هوس المضاجعة والحاجة إلى طرح نساء في الفراش لكي يقنع نفسه بفحولته. فقد كان كسولاً محاصراً بعقد وتقلبات وبسلوك متعرج ذي انفجارات هستيرية" (ص١٠٩) كذلك يجمع الطاغية ترخييو مع نظرائه أولئك، قاسم مشترك آخر هو تعاملهم المهين مع أعوانهم. فهؤلاء الأعوان، رغم ابهة المناصب وبريق النياشين والسطوة والنفوذ، هم، دائماً، وأمام الطاغية بالذات، مذلون مهانون ليس لهم رأي ولا يستشيرهم الدكتاتور بشيء مهم، وإذا ما غضب على واحد منهم، لأي سبب، فمصيره الزوال أو الموت، حتى لو قدّم حياته فداءاً للطاغية، وهذا هو بالضبط المصير الذي يلقاه رئيس مجلس الشيوخ (أو غسطين كابرال) وهو والد السيدة أورانيا، التي تعود إلى وطنها بعد مقتل ترخييو. فعلى الرغم من الولاء المطلق الذي يبديه كابرال لسيده الدكتاتور، إلا انه لا يستطيع ان يحصل على عفوه (بل حتى على لقاء لخمس دقائق فقط) عن خطأ عابر أرتكبه دون قصد (وهو العقاب) لايعرف بالضبط أي خطأ أرتكب حقاً كي يستحق هذا العقاب!) فيقوم بعزله من منصبه والحكم عليه بالإهمال والنبذ.

وبسبب من خوفه، أو من دونيته، يقدم كابرال على خيانة خسيسة لاسترضاء سيده، عندما يبعث إليه ابنته الوحيدة العذراء (أورانيا) لينام معها. غير ان الدكتاتور، الذي يقبل هذه الهدية، يرفض ان يعيد العبد الذليل إلى وجاهته السابقة، فيخسر كابرال بذلك، حظوته وشرفه معاً، مثلما تخسر ابنته رغبتها في الحياة إلى الأبد.

ولكي تكتمل ملامح الدكتاتوريين في نموج دكتاتور واحد، يبدو ترخييو، وهو يتمتع بمزايا هؤلاء وبحدسهم المتفرد في اكتشاف الخصوم والمتآمرين، حتى بين المريدين والأعوان "فهو يعرف الخونة، يشمهم حتى قبل أن يعرفوا هم أنفسهم بأنهم يخونون" (ص٢٧) ولذلك فهو يتعامل مع وزرائه وأقطاب نظامه باعتبارهم أعداء محتملين، فهم "يبقون، دائماً، على مسافة احترام منه، عيونهم متيقظة، قلوبهم آملة، ينتظرون ايماءة، حركة تسمح لهم بالاقتراب من الزعيم والاستماع إليه، واستحقاق حوار معه، حتى ولو كان توبيخاً" (ص٢٨).

لكن رواية (حفلة التيس) لا تترك للعبة الخير والشر ان تأخذ مداها التقليدي ذلك ان هزيمة هذا الدكتاتور، بعد أكثر من ثلاثين عاماً من حكمه وسيطرته على مقدرات البلاد والعباد، لم تكن نهاية سعيدة تماماً بل كانت، ولسنوات أخرى قادمة، بداية لنظام جديد يسيطر فيه ابناؤه وأخوته، على مقاليد السلطة وتبدأ، مرة أخرى، مرحلة دموية جديدة، والسبب، كما تشي الرواية، يعود إلى البنية الأساسية المتينة التي ركز أركانها ترخييو نفسه، بنية القمع والاستبداد والرعب، التي شوهت حياة الناس ودمرت قيمهم، ولذلك لم يستتبع مقتل ترخييو أي تغيير في تلك البنية إلا بعد وقت طويل من رحليه.

وهكذا تؤرخ رواية (حفلة التيس) لثلاثة عقود من حكم الدكتاتورية في الدومنيكان عبر ثلاثة مسارات يسرد الأول حكاية اورانيا أبنة رئيس مجلس الشيوخ، التي يقدمها والدها، في لحظة ضعف ودونية، لرئيسه الدكتاتور فيغتصبها ثم تهرب إلى الخارج وتظل في المنفى ثلاثين سنة، وبعد عودتها تروي قصتها المهينة لمن تبقى من عائلتها. والثاني يتعلق بسيرة الدكتاتور وطبيعة حكمه ونزواته وعلاقاته. فيما يتعلق المسار الثالث بوقائع عملية الاغتيال، التي يتعرض لها ترخييو فيقتل في إثرها. إلا ان المتآمرين الذين يتصدون له في الشارع ويطلقون عليه الرصاص، لا ينجحون في السيطرة على السلطة فيعتقلون واحداً واحداً ويخضعون لتعذيب بشع ثم يعدمون اخيراً. تبقى ملاحظة واحدة لابد من الاشارة إليها وهي أن دكتاتور الدومنيكان ترخييو كان مدعوماً من قبل الأمريكان طوال السنوات الأولى من حكمه ثم يتراجع هذا الدعم بعد أن يبدأ ترخييو بالخروج عن الطاعة، ولهذا تشارك أميركا، أخيراً، في دعم وتسليح المتآمرين عليه.

. (حفلة التيس) رواية للكاتب ماريو بارغاس يوسا.
. دار المدى/ دمشق. ترجمة صالح علماني.